بيان ذلك أنه لما خلق القمر على ذلك النظام أراد من حكمته أن يكون طريقا لحساب الزمان كما قال (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) ولذلك قال هنا (يوم خلق السماوات والأرض) ف (يوم) ظرف ل (كتاب ا) بمعنى التقدير الخاص فإنه لما خلق السماوات والأرض كان مما خلق هذا النظام المنتسب بين القمر والأرض .

ولهذا الوجه ذكرت الأرض مع السماوات دون الاقتصار على السماوات لأن تلك الظواهر التي للقمر وكان بها القمر مجزءا أجزاء منذ كونه هلالا إلى ربعه الأول إلى البدر إلى الربع الثالث إلى المحاق وهي مقادير الأسابيع إنما هي مظاهر بحسب سمته من الأرض وانطباع ضوء الشمس على المقدار البادي منه للأرض . ولأن المنازل التي يحل فيها بعدد ليالي الشهر هي منازل فرضية بمرأى العين على حسب مسامتته الأرض من ناحية إحدى تلك الكتل من الكواكب التي تبدو للعين مجتمعة وهي في نفس الأمر لها أبعاد متفاوتة لا تآلف بينها ولا اجتماع ولأن طلوع الهلال في مثل الوقت الذي طلع فيه قبل أحد عشر طلوعا من أي وقت ابتدئ منه العد من أوقات الفصول إنما هو باعتبار أحوال أرضية .

فلا جرم كان نظام الأشهر القمرية وسنتها حاصلا من مجموع نظام خلق الأرض وخلق السماوات أي الأجرام السماوية وأحوالها في أفلاكها ولذلك ذكرت الأرض والسماوات معا .

وهذه الأشهر معلومة بأسمائها عند العرب وقد اصطلحوا على أن جعلوا ابتداء حسابها بعد موسم الحج فمبدأ السنة عندهم هو ظهور الهلال الذي بعد انتهاء الحج وذلك هلال المحرم فلذلك كان أول السنة العربية شهر المحرم بلا شك ألا ترى قول لبيد : .

حتى إذا سلخا جمادى ستة ... جزءا فطال صيامه وصيامها أراد جمادى الثانية فوصفه بستة لأنه الشهر السادس من السنة العربية .

وقرأ الجمهور (اثنا عشر) بفتح شين (عشر) وقرأه أبو جعفر (اثنا عشر) بسكون عين (عشر) مع مد ألف اثنا مشبعا .

والأربعة الحرم هي المعروفة عندهم : ثلاثة منها متوالية لا اختلاف فيها بين العرب وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والرابع فرد وهو رجب عند جمهور العرب إلا ربيعة فهم يجعلون الرابع رمضان ويسمونه رجبا وأحسب أنهم يصفونه بالثاني مثل ربيع وجمادى ولا اعتداد بهؤلاء لأنهم شذوا كما لم يعتد بالقبيلة التي كانت تحل أشهر السنة كلها وهي قضاعة . وقد بين إجمال هذه الآية النبي A في خطبة حجة الوداع بقوله (منها أربعة حرم) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

وتحريم هذه الأشهر الأربعة مما شرعه ا لإبراهيم عليه السلام لمصلحة الناس وإقامة الحج كما قال تعالى (جعل ا الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام) .

واعلم أن تفضيل الأوقات والبقاع يشبه تفضيل الناس فتفضيل الناس بما يصدر عنهم من الأعمال الصالحة والأخلاق الكريمة وتفضيل غيرهم مما لا إرادة له بما يقارنه من الفضائل الواقعة فيه أو المقارنة له . فتفضيل الأوقات والبقاع إنما يكون بجعل ا تعالى بخبر منه أو بإطلاع على مراده لأن ا إذا فضلها جعلها مظان لتطلب رضاه مثل كونها مظان إجابة الدعوات أو مضاعفة الحسنات كما قال تعالى (ليلة القدر خير من ألف شهر) أي من عبادة ألف شهر لمن قبلنا من الأمم وقال النبي A " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " وا العليم بالحكمة التي لأجلها فضل زمن على زمن وفضل مكان على مكان والأمور المجعولة من ا تعالى هي شؤون وأحوال أرادها ا فقدرها فأشبهت الأمور الكونية فلا يبطلها إلا إبطال من ا تعالى كما أبطل تقديس السبت بالجمعة وليس للناس أن يجعلوا تفضيلا في أوقات دينية : لأن الأمور التي يجعلها الناس تشبه المصنوعات اليدوية ولا يكون لها اعتبار إلا إذا أريدت بها مقاصد صالحة فليس للناس أن يغيروا ما جعله ا تعالى من الفضل لأزمنة أو أمكنة أو ناس .

(ذلك الدين القيم)